مَـــوّال من مَـــقـــام الدّم

عبد الكريم الناعم

إلى كل «درّة» في فلسطين

❖ على شَجَرٍ من صهيلِ المنايا،
الطّيُورُ الصغيرةُ فيه تضيءُ العشايا،
سَيُزْهِرُ برقُ.

❖ على غصنٍ في القرارِ ثمارٌ بِلَوْنِ النَّجِيعِ الطَّهورِ،
تَفَتَّحُ باسْمِ البراعِمِ
تَبزُغُ في حالكٍ من زمانٍ كثيفٍ
تقومُ الطيورُ إليها على اسمِ الذي
يمنَحُ الصوتَ أوتارَهُ حينَ تَزقو.

❖ على لغةٍ من شقائقِ عُشْبِ القلوبِ
على شَفْرَةٍ في الحنايا
يقومُ البُراقُ ليقرأ:
«سبحانَ مَنْ حينَ أسرى...»،
على روعةٍ في الأداءِ
إلى النَّخلِ فاءَتْ فلسطينُ بعدَ انتظارٍ
وعادتْ إلى بساتينها بعدَ عَشْرٍ عجافٍ
فآذَنَ طَلْقُ.

❖ على نغمٍ من نواقيسِها
«مريمُ» الطُّهْرِ تَفْرُدُ إنجيلَ
زيتونِها الكَرمليِّ
فيَنداحُ أُفْـــقُ.

❖ على شفةٍ من كلامٍ عصيٍّ
بريقُ المرايا
يقومُ إلى بيتَ لَحْمَ
لِتذهبَ عكّا إلى سَهْرةٍ في الجليل
دَعَتْها إليها، على عجلٍ
من جنوبِ الجنوبِ، دمشقُ.

❖ بلادٌ على صورةِ الواهبينَ
تَعَتَّقَ فيها الوفاءُ
فجاءتْ كما تُشْتَهى
تماهتْ بسكّانها من حدودِ ابتداءِ
الرُّشَيْمِ إلى غايةِ المنتهى
تداخَلَ هذا بهذا
فما تعرفُ الآخرَ المستريحَ
إلى نفسِهِ
كيفَ تَفْصلُ نَبْضاً
عن القلبِ في عِشْقِهِ
ومَنْ يَفصلُ السيفَ/شَفْرَتَه
عن سنا بَرْقِهِ؟!

بلادٌ على صورةِ الشعبِ
حتى كأنَّ الأناسَ همُ الأرض

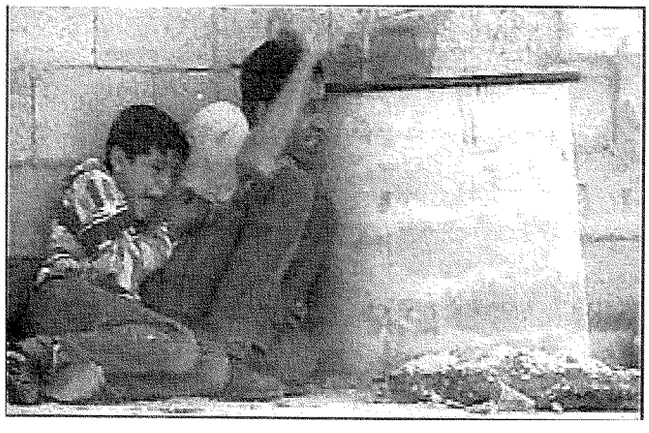

من أوَّلِ الخَطِّ في ثَلْمِ حنْطَتِهَا
إلى آخرِ الخيْطِ في فَجْرِ صَحْوَتِهَا.

بِلادٌ تَحِنُّ إلى أَهلِها الضَّائعينَ
وتَعرفُهم واحداً واحداً
بعدَ طولِ الغيابْ.

❖ بلادٌ إذا الموجُ لم يَتَدفَّقْ
على شكلِ ما تبتغيهِ
تقومُ إلى برجِها في الظلامِ الشديدِ
لترسُمَ كَيفَ سيأتي العُبابْ.

بلادٌ إذا الماءُ كانَ بعيداً
كيلا يشقَّ اليباسُ إلى اليأسِ درباً
تُنَدّي لظاها بِطيفِ السَّرابْ
سرابٌ،
وليسَ كَمَا قَرَّ،
ذو قِيعةٍ مِنْ بَساطَة أنّ الحجارةَ
ذاتُ كلامٍ فصيح
وأنَّ ظلالَ الإلَهِ على كلِّ بابْ.

❖ بلادٌ إليها أتى الطَّامعونَ
ومن كلِّ فجٍّ
وخابوا.

❖ بلادٌ إذا أَعْوَزتْكَ السّطورُ،
ومِنْ أجلِ أن تَكْشِفَ اللّغزَ فيها
فخذْ ذَرَّةً من ثَراهَا
ودَقِّقْ بمَا بعدَ تلك السّطورِ
وما خلفَ تلكَ السّطوحِ
ففي كلِّ شهقةِ حرفٍ كِتَابْ.

❖ بلادٌ هيَ القلبُ من صيغةٍ/أمَّةٍ،
أوّلُ البَوْحِ فيها انبهارُ المعاني بصورتِها
وهي تُجلى،
وآخرُ شكلٍ لها مِنْ حُنُوِّ الضلوعِ
القِبابُ.

❖ بلادٌ أتاها الغزاةُ
منَ الشرقِ والغربِ
كي يُدخلوها حدودَ دفاترِهمْ
بينَ شَوْكٍ ومُلْكٍ
فَلَمْ يبقَ منهم سوى الذكرياتِ،
وظلَّتْ كمالَ الحضورِ.
وغابوا.

❖ أنا لستُ أُطْلِقُ ما يدّعيهِ البيانُ مُشَاعاً،
وحينَ أقولُ بلادٌ أرى الشَّعْبَ فيها،
الرجالَ الذينَ كما التّينُ طابَ على أمِّهِ
في صباحِ الفراديسِ طابوا.
وأن يطيبُ الكلامُ عن الشعبِ
أعني المَنَقَّى من القمحِ
لا السِّقْطَ فيهِ،
وليسَ الزّؤانَ
فتلكَ مع المفرداتِ التي قدْ «تُسَاقُ»

إلى قاعةٍ كي «تُسوِّقَ» بعضَ القراراتِ
تأتي على شكلِ سطرٍ
وفي السَّطرِ أفعى.

وأعني الرجالَ الذينَ إلى الموتِ
يَسعونَ سَبْعا

وأعني الطيورَ التي بالمناقير صفراءَ
تَنْقُبُ دِرْعَ الحديدِ
فيخرجُ نجمُ الخليل
يضيءُ مزارعَ شبعا.

وأعني سوى مَنْ على لعنةٍ في الكراسي
يَرَوْنَ الدّماءَ تُراقُ
ويُذْبَحُ مِنْ أَخْدَعَيْهِ العِراقُ
وهمْ نائمونَ على سدَّةٍ
من نعيمِ المآسي
إذا ما نَظَرْتَ مليّاً
إلى ما وراءَ الوجوهِ
تَكَشَّفَ في مقلتَيْها النّفاقُ.

❖ بلادٌ كَمَا «دُرَّةٍ» من نجيعٍ
على غُرَّةِ التّاجِ
تاجِ الطفولةِ تُعْقَدْ
إذا أَسْلَمَتْها الزعاماتُ للورقِ الخُلَّبيِّ
لكيْ لا تضيعَ
يقومُ إليها من القبرِ،
من جرحِهِ الناصريِّ «محمَّدْ».
يقومُ ليُردى.. ويُردى.. ويُردى
فيُشْرِقُ من كلِّ ثقْبٍ على الجسدِ المخمليِّ
هلالٌ جـــديدٌ، ويسطَعُ فَـــرْقَـــدْ.

❖ بلادٌ تطيرُ الجثومُ بها في الفضاءِ
لتُعْلِنَ موتَ الضمائرِ غرباً،
تَطيرُ لِتُطْلِعَ شرْقاً،
لها الأمّهاتُ تُزغردُ حينَ
النّعوشُ لأبنائهنَّ،
إذا داهمَ الحزنُ حنجرةً من
نُضارِ حنونٍ.. فَغَصَّتْ.
وكيلاً يغَصَّ حمامٌ على قُبَّةِ القدسِ ليلاً
يقومُ الشهيدُ
يطوِّقُ أعناقَهُنَّ بقوسِ زُمُرُّدْ.

إذا داهَمَ الحزنُ أمّاً
وكيلاً تغصَّ
فإسراءُ «أحمدْ»
على فرسٍ من بُراقِ النجيعِ
إذا طُلَّ
زَغْرَدْ.

❖ بلادٌ نأتْ عن بساتينها
في المساءِ الطيورُ

وراحتْ إلى لَوْحةٍ في الشحوب
وتاهتْ عن الدّورِ حتى الدّواري.

تناءتْ مساءَ
لِتَلتَقِطَ النَّوْمَ من كَهرمانِ الغروبِ،
تُرى كيفَ تغفو؟
الرصاصُ الذي لا ينامُ يلاحِقُ
حتَّى الصّغارَ على الثّديِ،
تنأى البراءةُ عَنْ لثغةٍ
ليسَ تنضو ثيابَ الحبورِ،
تناءى،
وتَدخُلُ سرّاً أزقتَها في المساءِ الحواري.

❖ بلادٌ دويُّ القنابلِ أنضَجَ فيها العناقيدَ
قبلَ الأوانِ
فراحَ الصّغارُ إلى حجرٍ لا ينامُ
هو الآخرُ اشتعلتْ آيةُ النّورِ فيهِ
على برزخٍ من سَرارِ.

❖ بلادٌ من الماسِ، والبرتقالِ،
وزيتونِ كنعانَ،
والمآذنِ الذّاهباتِ إلى جَرَسٍ في
بروجِ الكنائسِ،

تعرفُ/
قد علَّمَتْها التجاريبُ
كيفَ تردُّ الضواري.

❖ أنا لستُ أشحنُ نفسي هنا
بالكلامِ الجميلِ.
أنا أقرأُ الأمسَ،
ما سوفَ يأتي،
أرى «دُرَّةً» في فضاءِ فلسطينَ قد
أَطْلَقَتْها إلى سَوْسَنِ الروحِ غَضْبَةُ يافا،
تَشَظَّتْ قنابلَ من غالياتِ الدراري.

❖ بلادٌ تقوم على دُرَّةٍ منْ سخاءِ القلوبْ
فخذْ ذَرَّةً من ثراها وَضَعْها
على دُرَّةٍ
تَنْطَبِقْ صورةً من بهاءٍ على أختِها.
تَفْضَلُ النُّقطةُ: البَدْءُ
بَدْءُ الحضورِ وقد شعَّ من باهراتِ الغيوبْ.

❖ بلادٌ تقومُ على صهلةٍ من دماءِ بنيها
فيعدو إلى المُثْقَلاتِ من الشَّجَرِ الغضِّ فيها
صهيلُ المِهارِ.
بلادٌ تَصُبُّ على غَضَبٍ في دماءِ الذراري
بصيرتَها،
حين حكّامُها يُطفئونَ القناديلَ،
صُبحاً إلى طَلِّهمْ يَذْهَبُ الصاعدونَ
بِطُهْرِ الضّحايا
فتُعْشِبُ في نائياتِ اليباسِ الصحاري.

حمص